من تراب الطريق (٤٤٧)

على هامش(*) محمد عبد الله محمد!

على هامش قصيدة : الشِّص ، للأستاذ المحامى الشاعر الأديب محمد عبد الله محمد ، عشت اليومين السابقين وأنا أتأمل فى أبياتها التى نقلتها إليك .. ترى أى معشوقة هى حلوة العينين التى يخاطبها محمد عبد الله محمد فى مطلع القصيدة ؟ ويصف حلاوتها بأنها مَجْدٌ عليها أن تلتفت إليه بقلب شاكر . يبدو أن الشاعر يخاطب نفسه داعيًا إيّاها ألاّ يصرفها التيه عن التفطن إلى ما حباها الخالق به ، ولا أن يغلب عليها حساب التاجر فى تعامله مع الدنيا ، ولا أن تخشى تقدم السن وانصرام العمر !

هو إذن يخاطب نفسه ، ولكنه يخاطبها كاللائم العاتب.. يعاتبها أن تقعد عن التمثل بالزهرة التى تشكر ربها على نعمائه ، وعلى البذرة التى أنبتتها ، والجو الذى نشأت وعاشت ونمت وترعرعت فيه . فهذا هو حال النفس .. لم يكـن لها فى إيجادها يد ، ولا اختيار لها فى المحيط الذى مِنْ حولها ، ومع ذلك تنصرف عن التفطن لنعمة الخالق الذى جاء بها إلى هذه الدنيا ووفر ما وفره لها ولكافة الخلائق فيها !

عاش الإنسان بالتكرار منذ نشأته، وعلى هذا التكرار بنى دوله وحضاراته.. حال الفرد فى الدنيا كحال الراقص فى حلبة الرقص .. راقص يقفو خطوات وتصفيقات راقص ، ويحذو حذوه ، يتابع معه الإيقاع على

(*) المال ١٧/ ٥/ ٢٠١٠ .

«الوَحدة» .. فهل تفطن الإنسان لتمثل معنى دوره فى الحياة قبل نهاية «القصّ» وإسدال الستار؟!

كم جال عقله سدًى فى فيافى وبحور الأشواق لا يبغى سوى شاطئ اليقين ، ولكن ما بال الشارد يقفو شاردًا مثله ؟ ولماذا يقع فى الظلام من ينشد النور ، ولماذا يعطى ظهره للضياء ؟!

يعاتب الشاعر محمد عبد الله محمد كل من يتعامل معه بكبرياء ، ويقف منه بعيدا كأنه إله ، مغترًا بما يطلقه من إرشادات ونصائح يعتقد أنها ثمينة ، مع أن كل ما يزجيه لا يعدو أن يكون «وَصْفَة» .. قلما تنجح فى علاج الداء الدفين المتجذر فى الأعماق . ينادى محمد عبد الله محمد على مرشده بأن يقف معه على أرض الشقاء التى يقف عليها ، وأن يعاين ما يكابده البائسون ، آملًا أن يكون معه أكثر سخاءً وأوسع خلقًا ورحابًا .

ها هو الشاعر يتحسس طريقه صوب الحقيقة التى ينشدها ، وربما عرج وانحرف فى طريقه ، وربما بالغ فى الحذر كشأن الأعمى الذى يتحسس بكفه الدرج ، ومع ذلك فإن العماء مستفحل فيمن حوله ، وها هم العميان يلومون أعمى مثلهم على اضطراب خطاه ، ولا ينجو من عيبهم وعيب سواهم عليه ، مع أنه ليس على الأعمى حرج !

إنه لا يسأل ربه تفسيرًا لماذا جىء به إلى هذه الحياة ، فإن الحقيقة الكبرى أنه ها هنا بالفعل . يحفظ الوهم ولا يقبل الواقع ! أليس هذيانا وتخريفًا أن يتوقع المخلوق عند انتهاء منحنى حياته ـ كشف حساب من خالقه ؟!

يبدو أن العماء الجزئى نصيب مقدور أمام نظام هذا الكون العجيب . تأمل هذه النَبْتَة التى مدت جذورها لتطلب الماء . فتخطئ وتصيب ! وهذا

النَّسْر الذى ينقض على هدفه ويغنم غنيمته ، بينما غيره من النسور تكد وتكابد ومع ذلك يخيب سعيها ! إن ما يبدو لنا الآن حظًّا سيغدو فى المستقبل قدرًا بعيد الموج يلهو بقريب !

ما بال الشِّص النائم صاحبه ، يصطاد حوتًا لم يصده اليقظ ، أو كما قال الأمير الأندلسى عبد الرحمن الناصر الأموى :

كم مقيم فازت يداه بغنم لم تنله بالركض كف مغير

كلما تأمل الإنسان فيما حوله ، هاله ألا يرى العدل المزعوم ، فلا ينبغى للعاقل أن يجرب أو ينازع المجانين ، فسوف تبدو بغيضا عندهم إذا كان رضاهم شاغلك !

ما للإنسان يفتقد الحب ، والحب هنا ، وما باله عاطش والماء من حوله ؟! أو كما قال الشاعر القديم :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

الإنسان مشغول بفكره ووحدته عن الخطو إلى الحقيقة الكبرى القريبة منه . إنه ليس أحرى من بلايين سبقوه ومضوا دون أن يتفطنوا إلى سر الوجود وغاية الحياة ، ولكن عليه أن يتمعن ويتأمل ليرى ، فغدًا سوف تمضى حياته كما مضت حياة الغابرين ، وهو لن يرى بعد رحيله شيئا ، فليس فى وسع المصباح أن يرى إطباق الظلام . من يريد أن يرى لابد أن يحيا ويبحث ويتأمل . إن الحىّ يبحث على عادته ـ مولد الأرض وأعمار الجبال ، وهو مع ذلك لا ينفك يشكو قلقه من أن الكون يمضى لزوال !!

كما من محدق فى العلاقات فصله التحديق عن أسلاك الحياة وعن فهم مغزاها وحكمتها وغايتها ، وكم من طفل فقد فى البحث والتحديق أباه !

كحال الذى يفقد طريقه إلى الله وهو يتساءل فى تيهه : هل من ثم إله ؟ وفى البيت الأخير ينهى محمد عبد الله إبحاره ببيت مفعم بالرمز :

مات شَيْخِى لم أُفَتِّشْ قَلْبَه عاشَ فى قَلبى دُعَاه ورِضَاهْ

هذا الشاعر المفكر تراه مشغولا فى كل ما نظمه من أشعار ـ بقضايا الإنسان والكون والحياة .. ومن المؤسف أن مزية محمد عبدالله محمد ، وأعنى بها عمق فكره وأغوار ما يغوص فيه ، هى التى فوتت على الكثيرين التحليق معه لفهم ما يومئ أو يشير إليه . لقد عشت قرابة ثلاثين عاما أتلقى رُطبًا جنيا من هذا المفكر العالم الشاعر الأديب .

لم أصادف وقد قاربت حياتى ثلاثة أرباع قرن ـ عقلا كعقل محمد عبدالله محمد ، ولا فكرًا كفكره ، ولا صفاء كصفاء نفسه .. هذا الصفاء الذى حفظ ملامح وجهه حتى عامه الثانى والتسعين من أن تحفر فى أساريره أخاديد العمر ، ففارق الحياة راضيًا فاهمًا بسيطا بساطة المفكرين والعلماء الكبار الذين عاشوا حياتهم فى عطاء فياض مستمر لا ينتظر جزاء ولا تنويها ولا شكورا .

رحم الله أبى الروحى محمد عبدالله محمد .

*****